العرب وتشوهات الاستجابة

إسماعيل الربيعي *

تداولات الوعي:

في أية مساحة يمكن الوقوف على مجال الترصد، داخل منظومة الوعي العربي في راهنه المبتلى بالتداخل والتخندق، والذي يجعل من الواقع في أشد حالات الفقد والخذلان للإمكانات والموارد المتاحة. وإذا كانت التساؤلات تترى حول هذا الوهن المقيم الذي أحاط بالعرب، إلى الحد الذي بات فيه الوهن والعجز والفشل من المرادفات التي لا يمكن التغافل عنها، إذا ما أُريد لأحد أن يندرج في توصيف الأوضاع والأحوال التي تحيط بالأمة، فإن التوصيفات الجاهزة صارت تفرد بحضورها الشديد والقوي، انطلاقا من هذه المعطيات المباشرة، والتي غدت وكأنها المقياس الذي يتم خلاله المقايسة مع الآخر والأوضاع التي تحيط به. ولم يقف الأمر عند محاولة الإدراك بوسائل وأدوات قوامها التسطيح والابتسار، بل أن حالة الإفراط في الاحتفاء بتجارب الآخر والمثال الذي بلغه، صارت كأنها الوصفة السحرية التي لا يمكن الاستغناء عنها، أو حتى رفع نظرة الاندهاش إزاءها.

حالة الابتلاء بالعجز، بلغت من التمدد والتوسع إلى الحد الذي صار فيه توجيه المعطى المعرفي نحو النقد والتفكيك، في أشد حالات الوهن والهزال. فالمنطلقات قوامها الطمأنينة لمحاولة إشباع الحاجات المباشرة، باعتبارها محاولة للإفلات والخلاص من أوضاع الاضطراب والقلق الذي استبد بكل شيء، من دون استثناء لحقل أو مجال. بل إن السعي نحو الطمأنينة صار المطلب الأصل في الآمال العربية، بعد أن تبددت مقولات «اليقظة والنهضة والثورة» التي عرشت بخطابها على الواقع، واستقر مجال النظر إليها من هذه الزاوية المرتبطة بالاستجابات الناقصة، حيث التحميل في أقصاه للمتطلبات المباشرة.

ظل المجتمع العربي يعيش أعتى حالات الانقسام، ولا سيما أن الأوضاع الداخلية والخارجية بقيت تفرد بآثارها على مجمل التفاعلات والموجّهات المؤسسة لبنية الوعي، لا سيما وأن خرافة الخصوصية بقيت بمثابة الرادع الأشد حضوراً في وجه حالة الانفتاح على كل شيء وأي شيء، بدءاً بالفكر مرورا بالعادات والتقاليد والفروض العملية التي تفرزها طبيعة التفاعلات الاجتماعية، ولعل اللافت في الأمر أنه يقوم على حالة الانقطاع الشديد الذي تفرضه هذه الأوضاع على طبيعة تداولات الوعي السائدة، حتى ليكون الترسم العام والشامل قد سقط في هوة التوزيع المستند إلى ثنائية؛ «ثقافة النخبة وثقافة العامة»، ليكون التجمد في أقصاه لا سيما في مجال تمثل التحديات والمقدرة على مواجهتها. ومن هذا المعطى الموغل في الخضوع للمعيقات والعقبات يمكن الوقوف على بعض ملامح

الإدراك لعسر التحولات التي تفرض بنفسها على الواقع العربي، من دون أن يكون للعرب أي دور، سوى الاندراج في جدليات الاستهلاك والتلقي، حيث التشوه والتصلب يكون الركن الأصل.

الاختلاف والتنوع:

بقي التلقي العربي يعيش حالة السيادة الواضحة لمرتكزات وتمثلات «البؤر» الاجتماعية، والتي لم يقف التأثير فاعلا عند مجالات العموم فقط، بل إن الارتكاز ظل يؤثر في صلب مجالات النخبة والعامة بشكل شديد الوضوح. ومن واقع التصلب الذي فرض بحضوره على تلك التوزيعات المفرطة في انتماءاتها العقائدية انغرست الأيدولوجيا بحضور فاضح التكثيف على مجمل التداول الاجتماعي من دون الوقوف على نقطة ضوء في هذه العتمة التي فرضت بحضورها على مجمل التفاعلات الاجتماعية.

المفارقة الأبرز في الحياة العربية تقوم على حالة الفصل ما بين الإسلام كمعطى شامل وعام لا يمكن التوقف عنده في مجال الفروض الدينية، بقدر ما كان تمثيلا لثورة ثقافية، كان لها الإسهام الواضح والمباشر في تحول مسار التاريخ الإنساني. ولعل الأهم هنا لا يتوقف عند مجال الانسياح والتوسّع على مجال المكان، بقدر ما يتبدى المعطى الموضوعي في صلب العامل الديني الذي استند إلى النص المقدس والحديث النبوي الشريف.حتى قيض للمسلمين استنباط شريعة شديدة الرسوخ، تقوم منطلقاتها نحو المعالجة الاجتماعية الصميمة، المنبثقة من طبيعة التعاطي ما بين الدنيوي والمقدس.وإذا كانت الطبيعة المحلية قد فرضت بقسماتها على بعض المعالجات، لا سيما في المجال التشريعي والقانوني- فإن المرونة الواضحة التي ميّزت الإسلام جعلت منه على قدر التحدي، وخصوصا في المرحلة اللاحقة التي تبدت خلال الفتوح الإسلامية التي تطورت بشكل شديد الوضوح خلال تبلور اتجاهات الإمبراطورية العربية الإسلامية.

الانتشار الإسلامي السريع في الحيز الجغرافي الواسع الذي كانت تحتله الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية- لم يكن ينطوي على بعد عسكري مباشر. فهو لم يتوقف عند سقوط نظام سياسي أو هيمنة مباشرة لقوة متسلطة، بقدر ما كان المحتوى الثقافي شديد الحضور في استيعاب وتمثل العوامل الاجتماعية والسياسية والنظم الإدارية. فالمعطى الأصل هنا لم يتحدد عند حقل أو مجال، بل إن التفاعل ما بين الديني والثقافي كان قد تبلور في هذا المجمل الإنساني الشامل، الذي قيض له استيعاب حالة الاختلاف والتنوع التي انطوت عليه تلك المجتمعات المفتوحة، وبالقدر ذاته من الفاعلية الثقافية بقي الإسلام بمضمونه الواسع يُفعِّل مجال اللقاء مع الوعي المختلف بانفتاح غير قابل للالتباس أو سوء الفهم. هذا بحساب الأهمية والاحترام التي صدر عنه بإزاء السمات الخاصة لهذه المجتمعات. ومن هنا كان التماهي مع هذا المعطى الموضوعي الذي عمل على ملء الفراغ الروحي والعقدي والثقافي الذي عانت منه تلك المجتمعات، في ظل تطاحن القوى والمصالح التي فرضتها القوى الكبرى لتلك المرحلة، حتى إن المؤثرات الثقافية كانت تخضع لردود

الفعل، أكبر مما تكون استجابة للتحديات.

توسيع مجال الادعاء:

قُيّض للعرب الذين حملوا الإسلام التوفيق مع الثقافات السائدة لدى الشعوب الأخرى، ولم يكن هذا التوفيق قائما على البحث عن مناطق الالتقاء والتواؤم، بقدر ما كان التطلع شاخصا نحو الهضم العميق للثقافات السائدة في مناطق الفتح الجديد، وعبر هذا المعطى تمكن الإسلام أن يحقق الحضور الفاعل والأكيد في العديد من المجتمعات ذات الثقافات المختلفة، حتى صار التماهي والوحدة العضوية جانباً أساسياً في المعطى العام والشامل، والذي برز من خلاله ذلك المجال الإسلامي الذي وسع الإمبراطورية المتحدة من الشرق إلى الغرب، شاملة رقعة جغرافية وتنوعات لغوية وثقافية وخصوصيات اجتماعية.

في لحظة الغروب التي نالت من الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي، تبدأ حالة الإخلال في الاستيعاب والتمثل للمعطى الإسلامي تحديدا، إذ لم يتوقف الأمر على لحظة سقوط لكيان سياسي أو انهيار بناء سلطوي، أنهكته التداعيات والتحديات الداخلية والخارجية، بل إن الكسل والإخلال كان قد نال من حظوظ المبادرة إلى الحد الذي انعدمت فيه المبادرة وخبت ملامح الإرادة الذاتية، ومن هذا الواقع المفجع المملوء بالفواجع والنكسات صارت مجالات النظر تتوجه نحو تكريس التمثل المجزوء للمعنى الإسلامي، من خلال الانخراط في تجليات الإفراط في الجانب الروحي على حساب العملي والدنيوي، ولم يكن هذا الجانب الروحي مرتبطاً بالمعنى العقدي للإسلام، بقدر ما كان الاتجاه نحو تكريس دور النخبة في توجيه مجال العبادة، والعمل على ترسيخ مجال المبالغة والاتكاء على الظواهر الفرعية من عموم الظاهرة العامة والشاملة، وفي لحظة الاضطراب المقيم الذي شمل مجمل قطاعات التفاعل والتعامل، تعرض الإسلام إلى المزيد من التشوهات التي كانت نتاجاً عن العديد من مراكز الفعل، ما بين تطلعات الآخر نحو فرض الهيمنة والسيطرة، والنتاج الصادر عن الذات الذي عانى أصلاً من الاضطراب والترهل بفعل الظروف التي أحاطت بالأمة الإسلامية.

التقابل النهائي ما بين الشرق والغرب لم يتوقف عند معطى التحدي المباشر، المستند إلى الاحتواء وتوسيع مجال التآمر، الصادر عن الغرب باعتبار حالة الارتقاء الحضاري الذي تحصل عليه، بل أن مكنون التوجه كان قد اتخذ بعده الثقافي، من خلال الارتكاز إلى توسيع مجال الرؤية الداخلية، والمستند إلى الإقرار بالطابع الخاص الذي ميز معالم النهوض الغربي، انطلاقا من التركيز على وحدة التاريخ الغربي، باعتبار انطلاقه من الفلسفة الإغريقية حيث سقراط وأفلاطون وأرسطو، وجعله مستمرا في صلب الفعالية الغربية «العقلية تحديدا». ومن هذا المنطلق كانت التوجهات قد ترصدت مجال النظر عند مضمون القوانين الخاصة التي حكمت هذا المجال، وتوسيع مجال الادعاء فيه، والعمل نحو إنفاء القوانين الاجتماعية التي يمكن أن يخضع لها الجميع.

مكنون التجربة:

خرافة التمركز الغربي لم يتم التأسيس لها انطلاقا من الاندراج في لعبة ساذجة قوامها المباشرة، في نبذ وإقصاء وتهميش الطرف الآخر، بقدر ما كان المستند فيها يقوم على توسيع مجالات العقل الماكر، حيث الاستناد إلى المنظور الثقافي في صناعة التاريخ. وإذا كانت المنتجات الثقافية الغربية قد أبرزت موجهات النظر التفاعلي على صعيد الواقع، إن كان على صعيد الفكر الليبرالي حيث تكريس مجال النشاط الرأسمالي أو التوسع في نطاق الحرية، أم على صعيد الفكر الثوري باعتبار التبشير بالاشتراكية- فإن مستوى الإنجاز المقابل لدى الآخر يبقى يقوم على آفاق التدبر التي تتدرج فيها حضارات بعينها. ولعل تجربة نمو النمور الآسيوية أو الارتقاء الذي خطت فيه التجربة اليابانية يفصح عن مدى الاستجابة الراسخة والصحيحة الصادرة، والتي كانت بمستوى التحدي الذي فرضه روح العصر. ومن هذه الاستجابة الفاعلة يتبدى بجلاء مكنون التمثل العميق لهذين النمطين من التفكير إلى الحد الذي يكون النجاح قد صار الحليف الشديد الحضور في تلك التجارب.

في ترصد مجال المواءمة والاختلاف لم يتردد العديد من الملاحظين في تقديم العامل الديني في ترسيم معالم النهوض لبلدان الشرق الأقصى، باعتبار الترصد في صلب المعطى الموضوعي الذي تقوم عليه الديانة الكونفوشية وطريقة التواؤم ما بين المادي والروحي إلى الحد الذي كان من الطبيعي أن تكون النتائج وقد بلغت هذه النتيجة التي يعززها الواقع. ومن مجمل الترصد هذا غاب البحث في مكنون التجربة الماليزية والتي قيض لها أن تحظى بالنجاح اللامع والبارز في إنجاز دالتها الحضارية، التي بلغت شأواً رفيعا، وعليه فإن التقاطعات التي يركز عليها مضمون التمركز الغربي، لا سيما في نطاق الانتقائية الثقافية والعمل على تحميل المعطى الديني، بعض المقاربات الفكرية ذات الطابع الغربي، يكون بمثابة التشبث بالجانب الطرفي من الظاهرة، تحت دعوى توجيه الاتهام نحو هذا الجانب أو ذاك، والعمل على تحميله الأسباب والآثار الناجمة عن ظاهرة محددة.

التباطؤ الذي ينشر بتفاصيله على مجمل العالم الثالث، حيث المعدلات الواطئة للنمو وتفاقم الإشكاليات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يجعل من البعض يتوجهون بكل ما يملكون نحو تحميل المعطى الديني، أسباب الإشكال، تحت دعوى التقولب وانعدام المرونة، إلا أن واقع الحال يكشف عن خطأ هذا التصور، بل إن الأمر لا يعدو عن كونه سقوط شديد المباشرة في المقولات التي تعمل على تكريسها مناخات التمركز الغربي، حيث التشديد على تقديم العناصر الثقافية واعتماد النظر نحوها، باعتبارها أصلاً غير قابل للتفاعل أو حتى الانفتاح على عالم الحوار. وإذا كان الغرب قد وفّق في توظيف هذا المحدود الموغل في الاستعداد، فإن الاستجابة الصادرة عن الذات لا تخلو هي الأخرى من تهمة التقصير، باعتبار الركون إلى التقليد والتراخي بصدد التجديد.

النزوع نحو الذات:

أين يكمن مجال التحدي في المجال العربي، سؤال لطالما تردد في مختلف الأروقة والأوساط، حتى إن تكراره صار يثير الكثير من مشاعر الإحباط والكآبة. هذا على اعتبار

أن العقول في أشد حالات توفزها انطلاقا وتدبيجاً حول هذا الراكد المستقر الذي يطيح بفورة الطموحات والآمال، ويجعل منها في أشد الأوضاع ضنكاً، فيما تكون المداورات والمناورات قد استقرت عند هذا الانغماس المرير في لجة من التناقضات والإرباكات التي زحفت حتى صارت تطال كل شيء، بدءاً من الأصغر والأقل شأناً من تفاصيل الواقع، وصولاً إلى العام والشامل الذي يغلف الحياة.وإذا كانت روح التبرم والشجب والغضب قد ألقت بملامحها على كل شيء، فإن الاندراج في الواقع سرعان ما يغشى كل شيء، لتصبح كل هذه المشاعر مجرد تعبير عن فورة قوامها الإفراط بالحماس، على حساب الملامسة الصادقة والحقيقية للواقع.

في لحظة الهدوء الذي تفرضه المعالجة العلمية انبرى العديد من الملاحظين نحو ترصد الملامح العامة التي ميزت قسمات الحياة العربية، حتى إن بعضا من الدراسات راحت تطال مستويات الفعل الداخلي، انطلاقا من محاولة تلمس درجة المرونة في صلب العقل العربي من خلال البحث في مجال المقارنات ومحاولة الوقوف على تحديد المزايا والفروق ما بين التجارب الإنسانية والمجتمعية، في سبيل الوصول إلى معطى قوامه الوضوح حول قيمة الفعل والإنجاز الذي ميز هذه المجموعة عن تلك، ومن هذا المستوى في تدبيج الملاحظة كان الترصّد في قوام الطابع الاجتماعي الذي ميز الملامح العامة للفكر السائد، حيث التفحّص العميق في النمط السائد، من حيث سيادة المدني على البدوي أو العكس، وتمييز درجة الإنجاز الإيجابي أو السلبي في عمق الظاهرة الاجتماعية. وإذا كان الفقدان قد برز في أشد حالاته ظهورا حول غياب الدور الفاعل وافتقاده للمدلول الحاضر، لا سيما على صعيد التأثير، فإن مجال الانتماء الاجتماعي في الوسط العربي بقي يدور في فلك الأنماط الفرعية، حيث الغلبة لهذا السعي النازع نحو تدبر مجال الأمن الذاتي والذي لم يتوقف عند الغايات الفردية، بل إن الإلحاق راح يتوسع إلى الحد الذي طغى على السمة الجماعية أيضاً. ومن هنا تحديدا صار التطلّع إلى التوسع الملفت في تقديم مجال الانتماء إلى العائلة والجماعة والطائفة، على حساب المضمون الشامل الذي يحتويه مفهوم الأمة أو حتى الوطن. ومن هذا المحتوى المستغرق في المحدودية والموغل في التجزؤ يكون التبديد في أقصاه لمجمل الجهود والإمكانات التي يمكن أن تكون الأداة والوسيلة نحو ترسيم معالم الدور المأمول والمرغوب فيه، لكن النزوع الفرداني صار له الحضور الأوسع والأشمل، انطلاقا من حضورية التراكم التاريخي في صلب العقل العربي إلى الحد الذي طغت فيه الامتثالات للإسقاطات على حساب الموضوعية التي انزوت في ركنها القصي البعيد عن مجمل التحديات التي تفرض بحضورها القوي والشديد.

المزيد من التحديات:

شرعية الانتماء التي تمثلها العرب من خلال الانخراط في تجليات نمط الإنتاج السائد، جعلت منهم في أشد لحظات الحذر والتشكيك بمجمل الظواهر التي تحيط بهم. ولم يقف بهم الأمر عند هذا المحتوى فحسب، بل أفردت مؤثرات الهيمنة التي فرضتها السلطة السياسية

نتاجها العقيم على مفردات التفاعل مع الواقع، فيما كانت الانضواءات العقدية وتسللاتها الأيديولوجية بمثابة الكابح الأشد استفحالاً على مجمل الأدوار والعناصر الثقافية التي ميّزت تطور المجتمع العربي.

الانتقال الحضاري الذي شهده العرب ضمن المفصل التاريخي البارز الذي مثله الإسلام، جعل من حالة التبدّل في الأنماط الإنتاجية تتخذ بعدا واضحاً في الانتقال من النشاط الرعوي الذي شمل أنحاء الجزيرة العربية، والتجارة التي انغمست فيها بعض الحواضر، أو حتى بعض الفعاليات الريفية التي ميزت الأنشطة الاقتصادية عند مناطق بعينها، ليكون التوجه نحو حالة الانفتاح على مجال الفتوح والقتال الذي شرعه الدين الإسلامي ضمن منظومة الجهاد. فيما يكون التركيز وقد توجه نحو توسيع مفهوم الهجرة والتأكيد على الجانب المستقر، من خلال حثّ جمهور المسلمين على نبذ حياة البداوة، وبقدر الانشغال الذي ميز فعاليات المجتمع العربي الإسلامي بالحرب والقتال والعمل على نشر الدين في الأصقاع الواسعة التي شملت المزيد من التحديات التي فرضتها المواجهة بإزاء القوى الكبرى من بيزنطّية وساسانيّة أو حتى بعض الكيانات السياسية التي كانت تدور في فلكهما.

لم يتوقف أمر التحول الذي شمل الحياة العربية عند العقيدة، أو أنماط النشاط الاقتصادي، بل إن التطورات كانت قد فرضتها طبيعة الدور الذي اضطلع به العنصر العربي، لا سيما على الصعيد الثقافي، حيث العمل على نشر الدعوة الإسلامية والعمل على القيام بتنظيم الحياة الإدارية والاقتصادية في البلدان المفتوحة، فيما كان للتفاعل مع المجتمعات الجديدة دوره الأكيد في بلورة المزيد من الاتجاهات، إن كان على الصعيد الفكري أم الاجتماعي، هذا بحساب التأثر والتأثير الذي تفرضه سنن الانفتاح على الآخر. فذا كان الولاء الديني قد مثل العلاقة العامة والشاملة لوعي الأفراد والجماعات داخل المجتمع العربي الإسلامي، فإن صراع النخب حول الزعامة والقيادة لم يكن ليغيب عن الواقع الذي ظهر في فترة مبكرة من عمر الدولة الإسلامية. والواقع أن ظهور بؤر الزعامة بقيت بمثابة الظاهرة التي بقيت تلازم مجمل تاريخ الدولة العربية الإسلامية، فما بين زعامات أُسرية أو انقسامات إثنية أو تفسيرات وتأويلات كان لها الإسهام المباشر في ظهور النزعات الطائفية والحزبية داخل جسد الدولة الذي يفترض فيه الوحدة. تكون الأهمية نحو ملاحظة هذا التطلع الحثيث والذي ما عرف الانقطاع يوما نحو موضوعة الزعامة، والتي لطالما كانت مساحة للفقد وتمييز ملامح الخسارة.

ملامح التأسيس:

المنافسة على الحظوة بالشرعية بقيت تمثل الدالة الأشد حضورا في بنية الوعي العربي. ولعل الروح القبلية والتي يستعر أوارها حتى اللحظة الراهنة كانت بمثابة الفاعل الأهم في تكوين موجهات الرابطة العلائقية التي تحكم العرب في حياتهم وعلى مختلف تفصيلاتها. فالخروج من الجاهلية حيث الاستناد إلى عصبية القبيلة بقيت تبرز آثارها في صلب الحياة

العقدية، حتى كان الاحتكام إلى السيف بين أبناء العمومة من أجل بلوغ الحظوة والحصول على السيادة والإمارة، فيما تحولت المفاهيم والتمثلات من الاحتكام للسيف خلال النزاعات المحتدمة التي كانت تفرض بحضورها في فترة الاحتدام والصراع القبلي، لتكون واقعة في إسار التشظي والانقسام والاندراج في مثالب الجدال المفضي إلى المزيد من التوزيعات والانشطارات، التي لم تطل وحدة الصف الجماعي، بل تخطته إلى إبراز ملامح الفرقة في الوعي العقدي، حتى صار هذا الطرف يكفّر الآخر تحت دعوى التحصّن بالعقيدة الصافية الخالية من أية شائبة.

ما هي القاعدة المادية التي تم عليها ترسيم معالم البناء الفوقي لدى العرب، ومن دون الوقوع تحت طائلة التوصيف المباشر ينبغي الوقوف على ملمح التأسيس الذي طبع الشخصية العربية، حيث البداوة التي كانت بمثابة السمة الطاغية، إلا أن الفاعل كان يقوم على الحاضرة العربية والتي تمثلت تحديدا في «مكة-المدينة»، حيث برزت ملامح الاشتراك ما بين قريش والأنصار. وبقدرٍ التحديات التي واجهت الدولة الإسلامية الناهضة كان التركز قد توضح لدى قريش تحديداً، باعتبار إرث الزعامة المتداول والمتوزع على مختلف المستويات، لعل الأبرز منها الديني والتجاري.

التزاحم الشديد ما بين البادية والحاضرة العربية بقي وقعه قائما عند مجال الشد والجذب، إلا أن جاذبية الحاضرة بقيت الأكثر حضورا بالنسبة للبدوي، الذي كان يتجرأ على البدوي المقابل باعتبار التناظر الاجتماعي، إلا أن مركزية الحاضرة بقيت تمثل لديه دلالة عميقة الأثر في نفسيته. وبالتطورات اللاحقة التي طبعت بسماتها على الشخصية العربية، حيث الانفتاح والتلاقح مع المجتمعات الجديدة المفتوحة يكون التنوع قد تبدّى بشكل شديد الوضوح عند بداوة مركبة قوامها المقومات الذاتية المحمّلة بالصراع القديم ما بين عرب الشمال والجنوب «القيسية واليمانية» التي كانت الوسيلة والأداة في تحريض السلطة الأموية للقوى الاجتماعية قصد الهيمنة والسيطرة، أو البداوة المجزوءة التي فرضت ملامحها علاقة النفوذ الفارسي في ديوان الحكم العباسي، حتى كان الانشطار على أشده ما بين عروبة لها فضل السبق في الإسلام، والمكانة الأثيرة التي تحققها السلطة السياسية، واغتراب بقي يرخي بسدوله على السمة الحضرية التي تلفعت بها الدولة، حتى كان الانقسام في صلب مؤسسة الحكم التي توزعت ما بين السيف والقلم، أو الهيمنة التي تبدى عليها البويهيون ومن بعدهم السلاجقة، حتى لم يبق من الخليفة سوى الظل الباهت.

التكريس الشكلي:

حالة الفصل بين الحاضرة والبادية بقيت بمثابة الدالة المشرعة على واقعٍ العلاقة الاجتماعية في صلب الحياة العربية، بل إن الانقطاع والفصل بقي ماثلاً يعبر عن نفسه في صلب التفاعلات الكبرى، الثقافي منها والسياسي، وإذا كانت البعض من المدن العربية قد استطاعت أن تُنشئَ لنفسها مركزية سياسية، فإن طموح التمركز الثقافي بقي حلما بعيد المنال، إلا في بعض الاستثناءات القليلة التي تبقى تستمد رونقها وحضورها من خلال

الارتكان إلى استدعاء الإرث التاريخي والعراقة، حتى كان الجانب الوظيفي في أشد حالات الفقد والنكران.

التمركز المدني وحالة الاستقرار والضبط الأمني الذي يمكن توفره المدينة مقارنة بالمحيط البدوي أو الريفي، لا يمكن الركون إليه باعتباره الرابط الشديد الوثوق، فبقدر ما يكون تأثير المدينة حاضراً في الأطراف فإن الزحف من الأطراف إلى المدينة يجعل من أمر التمايز أمراً قائماً في الأحياء، إن كان على الصعيد الطبقي أم على تركز الوافدين في أحياء بعينها، انطلاقا من واقع الانتماءات الطائفية أو القبلية. ومن هذا الواقع الذي يفرض بحضوره على المستوى العام لصورة المدينة تكون المفارقة في أقصاها، فبدلاً من أن تكون المدينة عامل تأثير في الوافدين إليها يكون العكس حاضراً في علاقة المواطن العربي بالمدينة، حيث الحضور الريفي أولاً بحكم استقطاب المدينة للعاملين أو الدارسين أو حتى المهاجرين الذين يعانون من نقص المهارة والكفاءة، فيما يكون الحضور البدوي من خلال طارئية العلاقات التي تقوم على حالة توزيع القوى إلى الحد الذي باتت فيه البادية تنتج سلطة لتكون هجرة السلطة إلى المدينة في قوام من الامتهان والاحتقار للوظيفة الجاهزة والمجرّدة المستندة إلى إنتاج الثقافة.

فقدان الحراك الاجتماعي للمدينة العربية جعل منها أداة ووسيلة موغلة في تثبيت ملامح الانقسام وتوزع الولاءات إلى الحد الذي باتت فيه بعض الأحياء تعيش لوثة التميز والانتصار لهذا الطرف على حساب الآخر. ومن هذا المعطى الموغل في الفردانية والنابذ لروح الجماعة، يبرز المفارق المستند إلى التقاطع الذي شمل عموم كيان الدولة العربية، على الرغم من حالة التكريس الصوري للانتماء الوطني والتضامن المفترض، وبقدر ما تكون السلطة عامدة إلى محاباة هذه الجهة أو تلك، انطلاقا من حالة التوزع الجغرافي، فإن أحوال التشرذم سرعان ما تفرض بحضورها على مجمل الممارسات والوعي الذي طبع الحياة العربية، حيث الإحساس الشديد بالإبعاد والإقصاء والتهميش يكون الحاضر الأهم، فيما يكون الانتظار المتوثب نحو القصاص من النخبة المهيمنة واتباعها في أعتى حالات التوفز.حيث الاندراج في لعبة استبدال الأدوار، والعمل على تهميش من كان يشحذ الهمم نحو تهميش الآخر، ومن هذا الانطواء في مجال لعبة الكراسي الموسيقية يكون العرب في المكان القصي والنائي عن سياقات المؤسسة وتجلياتها المفترضة في ثنائية السيادة والتمثيل.

تفاعل القوى:

كيف يمكن الغور في تفصيلات المجتمع العربي، خصوصا إذا كان الطموح يسعى نحو تقديم الجانب العلمي وتغليبه على القراءات والتفحصات الأخرى، وبقدر ما تكون المعطيات خاضعة لضباب المفاهيم وعمه المصطلحات، فإن تحديد المعنى هنا يبقى بمثابة المؤشر الشديد الأهمية في تحديد مجال الالتباس الذي يحفز بكل قوة، داخل المجتمعات البشرية وطريقة توظيب النظرة نحوها. ولعل الدرس الاجتماعي بعمومه لا يتوقف عند

النظرة الكلية والشاملة التي تفرضها الرؤية العامة حول مجتمع ما بقدر ما يحتوي على المزيد من القراءات والدلالات التي يتم من خلالها تحديد مجال النظر إلى التنوع الفئوي الذي يحتويه المجتمع الأكبر الذي يضم العديد من التجليات والقطاعات الفرعية.

الشمول والسعة التي يتبدى فيها المجتمع تجعل منه في أشد حالات الاكتناز بالتباين والاختلاف، لا سيما في مجال تحديد المفهوم، إلا أن الرابط الموضوعي يبقى شديد الحضور باعتبار الوقوف على النظم والعلاقات والتشكيلات التي تميز الأنماط السائدة داخل مجموعة بشرية بعينها، ولعل الملاحظة الأهم هنا لا تتعلق بالجماعات فقط، بل تتخطاه نحو نمط العلاقة الذي يسود بين الأفراد أيضا، حيث العناية بالمضامين وأطراف العلاقة المكوّنة.

الاختلاف في زوايا النظر حول المجتمع العربي تستدعي الوقوف على التعدد في الاتجاهات النظرية النازعة نحو توظيب المعنى في صلب الظاهرة الاجتماعية، ولعل اللافت في الأمر يقوم على حالة الإسقاط النظري التي يندرج فيها البعض من الملاحظين، باعتبار الخوض في تطبيق النظرية على أي واقع أو مجموعة بشرية قابلة للدرس والتفحص، وهكذا وقعت العديد من الاتجاهات النظرية في هوة الجاهزية، ومحاولة اعتماد الأطر الثابتة التي لا تقبل الحياد أو حتى المداورة على بعض المعاني القارة والثابتة المفترضة التي تصورها النظرية، وعلى الرغم من ألمعية التنظير الماركسي لا سيما في مجال ترسيم معالم المعنى الاجتماعي، إلّا أن الإشكالية المباشرة في دراسة المجتمع العربي تتجلى بشكل شديد الوضوح، فالمحدد التاريخي الذي ترصده ماركس في توظيب معالم العلاقة الاجتماعية يستند إلى مفهوم الطبقة التي تستمد وجودها من العادات والتقاليد والقانون الذي يسود، ومدى الارتباط بأسلوب الإنتاج الذي يحدد قوة هذه الأبعاد، ويبقى الترصد الماركسي متشاكلا عند معطى التمرحل التاريخي الذي يحدد أشكال التطور الاجتماعي، إلا أن النظرة العامة تبقى متوقفة عند رؤية الثبات التي يتم إسباغها على المجتمع. فالتفاعل بين الأفراد يمثل الأساس الذي يرتكز عليه المعطى النظري حول تحديد معنى المجتمع، وبقدر ما يكون هذا التفاعل بمثابة الموجّه الأصل في توظيب ملامح التشكيلات الاجتماعية، إلا أن هذه الأخيرة تبقى عرضة لتفاعل القوى الرئيسة التي تقوم عليها النظرية الماركسية، حيث «علاقات وقوى الإنتاج» فيما تقوم الترسيمة النظرية انطلاقا من غياب الإرادة الذاتية في تحديد الانتماء الطبقي، ليكون الثبات في توزيع التشكيلات، حيث الارتباط الصميم بطبيعة نمط الإنتاج السائد، والذي يحدد بدوره نمط العلاقات الاجتماعية السائدة.

التوظيب الأيديولوجي:

بقي التوظيب النظري يفرض بسطوته على واقع تفصيل المعنى داخل الإطار المرجعي الاجتماعي العربي، لاسيما حول تمثل النظرية الماركسية، والتي بقيت تعيش حالة الانفصال اللافت بين الوقائع التي تتابع على مستوى البيئة العربية وطبيعة التمثل للمعاني

وطريقة تجسيد الأحداث في منظومة معرفية، يعوزها الاكتناه الصميم لمجمل التفاعلات السائدة، حتى كان النظري ينزع باتجاه، فيما يدور الواقعي والحسي في اتجاه آخر، ومن هذا التقاطع المرير انشغل الماركسي العربي في تحديد معالم العلاقة نحو تدبيج الخطاب الخاص القائم على تفصيل التأثير المندرج في تأسيس ذات ثقافية شديدة التعالي، قوامها الإبهار والإدهاش في هذا الكم الهائل من المقولات المعتاشة على الشعاراتية والمغمسة بالتباثات الأيديولوجيا، حيث الإقصاء على أشده حول الاستغراق في الثنائية المرسمة معالمها بين (الكادحين والبرجوازيين» وبقدر ما تم إسباغ ملامح الاستشهاد الرومانسي على الفئة الأولى، فإن نعت التحقير سرعان ما تم إلصاقه بمالكي وسائل الإنتاج، باعتبار الشر المستطير، والذي ينبغي تطهير المجتمع العربي من أدرانه وبلاياه ورزاياه.

الطابع التحقيري الذي وظبه الأيديولوجي العربي، بإزاء الرأسمال الوطني «الكومبرادور»، أو حالة العداء المعلن نحو السراة والنخبة وملاك الأراضي، جعل من تمثّل الواقع يقوم على المعطيات المجزوءة، حيث المعنى الجاهز الذي لا يمكن الحياد عنه، بل إن الإعداد المسبق والقائم على البديهي والمسلم به يكون بمثابة السيف المسلط على طريقة إنتاج العقول، واستحضار معادل المراقبة والمعاقبة، الذي لا يقبل الحياد أو حتى الراحة لقد تم توظيب كل شيء من أجل الاستغراق في كومونة الأيديولوجيا وجعلها المقياس الذي لا يقبل المداورة حتى المناورة.

وبقدر ما يكون الطابع الحدثي المستغرق في السياسي شديد الحضور في الواقع العربي، فإن الانغماس المرير في هذا الحقل جعل من العين الواحدة وكأنها المثال الذي لا يقبل الإزاحة أو حتى التململ، بل إن من يتنادى بالتعدد والتسامح والاختلاف ونبذ المطابقة يكون في اشد حالات الاغتراب والنبذ، ولعلها تكون بؤرة التداخل العربي مرتكزة في هذا العزل المسبق. فالأيديولوجيا غدت ذات الحظوة والأهمية على حساب الواقع، ومن دون الوقوع في دوامة الأسبقيات والوقوف على الأهمية الطرفية التي يمكن عقدها حول مكانة «الفكر أم الواقع» يكون الاستهلاك وقد استبد بحضوره على مجمل المحددات المفترضة في توزيع العلاقات، باعتبار الانغلاقية التي تفرزها الصرامة العقلية الواقعة تحت إسار الاكتمال والكمون في الصحيح الذي لا يعرف الباطل إلى الحد الذي تكون النتائج فيه وقد استغرقت في دوامة العجز وغياب الإرادة، فالتكريس الفكري يكون الحاضر الأهم بل والأوحد على حساب المضامين والعلاقات والرؤى والتصورات التي يزخر بها الواقع.

ملامح التداول:

لقد تم استدراج قطاع واسع من المثقفين العرب إلى مساحة قوامها غياب البديل الموضوعي، باعتبار توسيع حالة الانضواء في تقديم المقولات واستهلاك الشعاراتية المباشرة، حتى صار التخوين بمثابة الخطاب الأكثر رواجاً، على حساب التأصيل للمعنى الواضح المستمد من طبيعة التفاعل الواعي مع الواقع، ومن هذا الاضطراب الذي فرض بقسماته كان الاجترار للتجزيئية، وتوسيع مجال الارتباك ليتم توجيه أسهم النظر المتشكك

والمستريب في العديد من المصطلحات والمفاهيم السائدة، والتي كانت من بينها «الليبرالية» على سبيل المثال، فلوثة التقدمية والثورية جعلت من هذا الاصطلاح في أشد حالات الاندراج ضمن حدود معسكر الأعداء، هذا بحساب التداول الذي يميّز توجهات وتطلعات العالم الغربي، حيث حرية السوق وهيمنة الرأسمال الخاص والإعلاء من شأن التنافس بين الأفراد، من خلال الاستناد إلى شعار «دعه يعمل دعه يمر» والتأكيد على احترام الإرادة الفردية في توظيب وترسيم معالم الاختيار.

انقسام العالم في حقبة نهاية الحرب العالمية الثانية جعل من احتدام الصراع الدولي يتخذ بعده المباشر في منظومة العقل العربي الذي هب سريعا نحو تمثّل النتائج من دون التملي أو حتى التوقف عند المقدمات. وإذا كانت الحماسة القومية قد طغت لدى بعض التيارات السياسية من أجل تداول خطاب الأعداء بالنسبة لقوات الحلفاء في سنوات الحرب العالمية، فإنه كان ينبع من واقع الرفض والمشاكسة لقوات الاحتلال التي كانت تجثم بقواها على ا لأرض العربية، إلا أن ملامح التداول اتخذ بعدا آخر في أعقاب الحرب، لا سيما بعد أن توضحت معالم التقاطع بين حلفاء الأمس إلى الحد الذي بات العالم يعيش حالة التوزيع الشديد المباشرة بين اتجاهين، من دون أن تتبدى أدنى ملامح التقارب.

إزاء التقابل الذي طبع واقع العلاقات الدولية والتقمصات الفكرية التي فرضت بملامحها على العالم اندرج المثقف العربي وبكل قواه في هذا التنامي للتوزّعات التي ما انفكت تعتاش على توسيع مجال الثقة. وهكذا صار التطلع الحثيث نحو الوثوب في هذا الأتون المستعر من التداولات الخطابية بحماسة شديدة الإلفات إلى الحد الذي بات فيه صوت الأيديولوجيا طاغياً، حتى آل إلى إنفاء وإلغاء ما دونه. وإزاء الانقطاع في الرؤى برزت على سدة الواقع التمثلات التي اندرج فيها المثقف العربي بطريقة قوامها التجزؤ والتشظي حتى صار الالتفات إلى نصرة طبقة بعينها دوناً عن الأخرى، وكأن الواقع العربي كان بحاجة إلى المزيد من الانقسامية، ولم يقف أمر الانشطار عند الإيغال في التوزيع، بل أن هذا الأخير طال صلب المحتوى الذي قامت عليه رؤى وتصورات المعتنقين أنفسهم، فالادّعاء كان الحاضر الأهم على حساب المعنى الأصيل.

تزييف الواقع:

ولّد الاستغراق في تنامي شعور الانسحاق سيادة روح البرم واللاأبالية حول المزيد من الظواهر، بل إن ملامح الفخر والاعتزاز صارت تأخذ معنى شديد الاختلاف، قوامه الاندراج في توسيع مجال الهوة ما بين طرف محدد حمّل بالأخطاء والمثالب، فيما كان التوقف عند المضمون الراكد الذي يتلفح بصفة الكدح والانتماء إلى الفقراء والمظاليم، إلاّ أن الباطن فيه يحتوي على الطموحات الكبيرة، والمستعدة لإلغاء كل شيء في سبيل الوصول إلى الغايات. ومن هذا التقاطع الذي يبلغ الابتذال يكون المثقف العربي في أشد حالات الانقسام والتقاطع بين شعارات يتنادى بها، ويقدم لها باعتبارها الأيقونات المقدسة، وممارسات تفصح عن المكنون الداخلي الطامح بشغف لافت نحو التسلق، ونبذ الأحوال

والأوضاع التي أحاطت به، والتي يرتضيها ويفخر بها علنا، ولكنه يحتقرها ويعمل على الإفلات من سيطرتها داخليا.

لعلها تلك أزمة الأيديولوجي العربي الذي تصور أنه في إيهام الطرف الآخر، بالصرامة المبدئية والانتماء العميق إلى الأفكار التي يتنادى بها سيكون في منأى عن ترصدات الآخر وعينه الرقيبة الفاحصة، تحت دعوى الاكتمال الأيديولوجي والمعرفة الناضجة والتأكيد الذي يصل إلى البديهي والمسلم به، ومن هذا الانطواء الموغل في الذاتية راح الأيديولوجي العربي يبكي بحرقة على مأساة أنغولا، وتعاطف إلى حد الوله مع مشكلة تشيل، فيما تصدرت صورة غيفارا جدران غرف الاستقبال، وزيّنت كتب "ماو" و"كيم ايل سونغ" المكتبات المنزلية الخاصة.

واقع الازدراء الذي غشى الواقع العربي جعل من ثقافة الشجب تتصدر المشهد بطريقة شديدة الإلفات، فيما غدا مركب النقص يتفاقم في الذات الأيديولوجية، حين تحضر لحظة المواجهة المعرفية المستندة إلى النقد والتشريح وتفكيك المعاني، ومن واقع التمثلات الناقصة صارت الأسبقية للوعي المجزوء حيث الإفصاح عن الإفراط في الحماسة والإيغال في تزييف الواقع، باعتبار الركون إلى الاتباع والتقليد الذي تفرضه مقومات الانتماء الطرفي، والذي يعبر عنه من خلال الحزب والمنظمة والجماعة. ومن هذه الملامح القائمة على قداسة تصنيع العقيدة الحزبية يكون الفصل الفاضح ما بين النظرية والتطبيق، فيما يكون منطق التدبير حاضراً في حالة بروز الأخطاء، تحت دعوى أن الخلل يكمن في التطبيق وليس النظرية. ومن واقع الإيغال في الانحياز وتحديد الوجهة الثابتة التي لا تعرف الإدبار أو الإنكار، تكون الضحية الأهم وقد توقفت عند المعطى المستند إلى غياب الأهداف، انطلاقا من واقع التداخل المفجع في الأنساق، إنه الإفراط في هذا الاهتمام بالمضامين التي يحتويها الخطاب على حساب العناية الصميمة والأصيلة بالآليات التي يمكن من خلالها الوقوف على المزيد من المعطيات المتنوعة والمختلفة النابذة لكل أشكال محاولات إثبات تفوق طرف على آخر.

****

) كاتب وباحث عراقي.